مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية
المجلد41 العدد(2) – 2025: 410-423

Damascus University Journal for engineering sciences
Vo 41 number (2) -2025: 410-423

المرجعيات الفلسفية والحسية
عند الفنان فاتح المدرس
تبادل النفاذ الفلسفي – التشكيلي

سائد سليمان سلوم*[1]

*[1]. دكتور مدرس في جامعة دمشق– كلية الفنون الجميلة– قسم التصوير.

. Saed.Salloum70@Damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

تعرض الفنان التشكيلي المصور (محمد فاتح المدرس 1922– 1999م) إلى جملة من المؤثرات في حياته تمثلت بمؤثرات فكرية وحسية انعكس من خلالها الواقع الاجتماعي والسياسي في أحكام جمالية في إنتاجه الفني.

وقد أظهرت هذه النتاجات باعتبارها عمليات عقلية – حسية ارتباطاً لا ينفصم عن حالته النفسية وشعوره الدائم بالتوتر والقلق والانفعال والألم فهو كالوجودي الذي يقف وجها لوجه أمام الموت او(العدم) فقاده هذا الإحساس العميق بالوجود والقضايا الإنسانية مثل: (القضية الفلسطينية) و (الثوار الجزائريون) فضلاً عن تفاصيل حياته الخاصة مع عائلته إلى أسلوب جمالي متطبع بطابع الفجيعة الذي تمثل بالأسلوب التعبيري الخاص به، وذلك عبر عمليات الاختزال والتحوير والتبسيط والمبالغة في تأليف بعض الأشكال الفنية وبنيها الغرائبية.

كل هذا كان بتأثير مرجعيات لا يمكن تجاوزها ولاسيما عمليات تبادل النفاذ الفكري بين الفلسفة الوجودية (كطريقة في التفكير) وفن التصوير(كأسلوب في التشكيل).

فكانت المرجعيات الأساسية لنظام الشكل واللون عند المدرس هي المنطلقات التي بقيت كامنة ومتخفية في كل إنتاجه الفني، فكان هذا البحث من أجل كشف وتحديد هذه المرجعيات التي يجب الانتباه إليها والاستعانة بها لمعرفة الحقائق الفنية والجمالية في إنتاجه الفني.

الكلمات المفتاحية: المرجعيات – الفكرية – الحسية– الوجودية– الفنان فاتح المدرس.

تاريخ الايداع: 2023/1/29
تاريخ القبول: 2023/2/12

حقوق النشر: جامعة دمشق –سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب **CC BY-NC-SA**

Fateh Al Moudarres's philosophical and sensory references Philosophical - Plastic Access Exchange

Saed Soliman Salloum*[1]

*[1]. Doctor Lecturer at Damascus University, faculty of Fine Arts, Painting Dep. Saed.Salloum70@Damascusuniversity.edu.sy.

Received: 29/1/2023
Accepted: 12/2/2023/

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

Introdiction:

The plastic painter (Mouhammad Fateh Al Moudarres 1922-1999AD) was exposed to a number of influences in his life represented by intellectual and sensory influences through which the social and political reality was reflected in aesthetic provisions in his artistic production.

These products, as sensory-mental processes, showed an inextricable connection with his psychological state and constant feeling of stress, anxiety, emotion and pain. Like the existentialist who stands face to face with death or nothingness, he is led by a deep sense of existence and human issues such as: (The Palestinian Case) and (Algerian Revolutionaries)
As well as the details of his private life with his family to an aesthetic style affected by the character of bereavement represented by his own expressive style through the processes of reduction, modification, simplification, and exaggeration in the composition of some artistic forms and their exotic structure.

All of this was influenced by unavoidable references, especially the exchanges of intellectual access between existential philosophy (as a way of thinking) and painting (as a style of formation).
The basic references for the system of shape and color for the Moudarres were the starting points that remained latent and disguised in all of his artistic production, so the research was to discover and identify the references that must be paid attention to and necessary to know the artistic and aesthetic realities in his artistic production.

key words: Sensory −intellectual references, existentialism, the artist Fateh Al Moudarres.

المقدمة:

عندما يتناول الباحث الشروط التحليلية لعمل فني محدد أو مجموعة من الأعمال قد أنتجها فنان تشكيلي، لا بد من العودة إلى المرجعيات بكونها المؤثرات المباشرة وغير المباشرة في نظام الشكل واللون وفي الأسلوب بشكل خاص، وهذه المرجعيات هي مفاهيم، ولها القدرة الذهنية في الإحالة إلى ما هو خارج العمل الفني التشكيلي ، ويعتمد الباحث في هذا السياق على الكشف عن المرجع لغرض فهم العمل الفني ووعيه واستشراف أو تبيان المعنى الكامن فيه وأسلوب تشكله، وهو ما يحيلنا إلى ما وراء العمل الفني أي إلى الفلسفة التي تأثر بها أو عمل من خلالها أو تفلسف بها الفنان في سلوكه لإنتاج لوحاته التي عبّرت عن كوامنه الذاتية.

وكما يبدو الأمر في أعمال (فاتح المدرس1922– 1999م) أنه تم الانزياح عن الشكل الواقعي بفعل ضواغط متعددة, لكن أكثرها تأثيرا كان واقعه الاجتماعي والسياسي تفكيره بالواقع الموجود، بما هو موجود في الواقع منذ طفولته أولاً والحداثة التشكيلية العالمية ثانياً بكل ما يتعلق بتياراتها الفنية كالتعبيرية والسريالية والرمزية .. وما رافقها من فلسفات حديثة كالبراغماتية والوجودية والحدسية ..

ولكن يبدو أن أشدها تأثيرا في فاتح المدرس كانت الأفكار الوجودية التي يفترض أنها انتقلت إليه أثناء وجوده في أوروبا والتقائه بالمفكرين والفلاسفة والفنانين الحداثيين آنذاك.

كل هذه المؤثرات هي التي أدت إلى الانزياح في أعمال (المدرس) عن الشكل الواقعي أو الانفصال والتحول عنه إلى منظومة بنائية جديدة ارتبطت بالشكل المربعي وهندسته المدماكية في أسلوب خاص به وهذا ما يشكل ضرورة ملحة للكشف عن حقيقة المرجعيات التي أدت إلى هذا الانزياح الذي لا يخلو من تناقض وغرائبية بين هندسة التشكيل والمرجع المؤثر فكرياً وحسياً .

مشكلة البحث:

إن البحث العلمي يبدأ من موقف مشكل بحسب (جون ديوي) أو إشكالية وهي بمعنى مسألة "وهكذا تكون أولى خطوات البحث هي أن نرى الموقف يتطلب بحثاً"[1] من أجل الفصل والتحليل لكل ماهو مختلط ولفك تداخل المعطيات (العقلية) و(الحسية) التي شكلت المحرضات الأساسية في الانزياح والتحول الشكلي والأسلوبي في أعمال الفنان فاتح المدرس .

لهذا يتطلب البحث العودة أو الرجوع إلى المؤثرات لفرز الاختلاط وإزالة الابهام والغموض عنها من مصدرين رئيسيين: الأول يتمثل بالتفكير والفلسفات المحايثة لوعي الفنان لأحداث زمانه، والثاني يتمثل بكل ماهو متعلق بالمحسوسات في الواقع الاجتماعي والسياسي لحياة الفنان منذ طفولته.؟

فرضية البحث:

بعد إدراك المشكلة ووعيها يمكن صياغة الفروض وفقاً للمعطيات الأولى والتي أكثر ما تظهر بتأثر الفنان المدرس بمرجعيات مرتبطة بالقلق والتوتر والألم والانفعال بالأداء الفني فضلا عن التعلق بكل ما هو موجود، وهذا ما يفترض أن (المدرس) اعتمد على الخزين الذهني من الفلسفة الوجودية وما فيها من مؤثرات في تقديم بناءات تشكيلية .

ومن جهة أخرى فإن تأثر الفنان بالواقع والطبيعة العيانية والعمارة الدمشقية وواجهات الابنية والأوابد التاريخية في المنطقة كمشاهد بصرية ألفها الفنان كالمساحات الزراعية المهندسة في السهول والهضاب في الشمال السوري أدت إلى تحول بنية التكوين والشكل الفني عنده إلى المدماكي الهندسي ..

---

[1] ديوي، جون، **المنطق نظرية البحث**،ت: زكي نجيب محمود، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط2، 1961م، ص 204.

إلا أن الفكر الوجودي هو ما حال دون أن يكون الانزياح نحو التجريد الهندسي المحض –افتراضاً– وما يدعم هذا الافتراض أن التجريد الهندسي يتطلب الخضوع إلى الفلسفة المثالية التي تقول بأن "الماهية أسبق من الوجود"2 و"تصور لنا عالماً غائباً معقولاً ، مفهوماً"3 وبالتالي فإن المرجع في هذه الحالة غير موجود في الواقع لأنه في منطقة (غياب) ولا يمكن الرجوع إليه في عالمنا الحسي الواقعي، بينما يرى الباحث في أعمال (المدرس) الواقع بكل إحساساته من ألم، وفرح، وقلق، وتوتر بمعنى أنه ارتباط بعلم الجمال الوجودي4 Existential Aesthetics.. متمظهرة في الشكل والأسلوب بأداء الفنان المنفعل وانبعاثات الفنان وانفعالاته الفردية اللاشعورية تجاه الواقع متأثرا بطفولته التي عاشها (يتيماً) من دون أب الذي مات (قتلاً) وهو ما يجعل الافتراض أكثر ميلاً إلى المرجعيات الوجودية.

حدود البحث:

أما الحدود الزمانية فهي تشمل المرحلة التي عاشها الفنان المدرس منذ 1922 وحتى وفاته في عام 1999م متمثلة في حياته ضمن الحدود الجغرافية في سورية لحدود المكان.

منهج البحث:

للكشف عن المرجعيات الحقيقية عند هذا الفنان يتطلب البحث التحليل وتفكيك الكل إلى المكونات، ثم دراسة المفكَّك ومقارنته بالمؤثر والمحرِّض من حيث المعقولات الفكرية من جهة والمحسوسات في الواقع الاجتماعي من جهة ثانية، وهذا ما يتطلب إسناد المنهج التحليلي إلى المنهج المقارن ليصبح المنهج المتبع(التحليلي/المقارن).

المصطلحات والمفاهيم:

أهمها في هذا البحث: المرجع و المرجعيات الفكرية – و الحسية.

جاء في اللغة العربية في فاموس المحيط" رُجعى رسالتي، كبشرى، أي مرجوعها.. واسترجع منه الشيء: أخذ منه ما دفعه إليه"5 والمرجعية في معاجم المصطلحات "علاقة بين العلامة وما تشير إليه"6 أما في اللغة الانجليزية فيجد الباحث معنى المرجع reference: "فعل الرجوع إلى، أو الاستعانة بـ ، إحالة إلى مصدر يقدم الجواب لمعرفة الحقائق الموثوق بها، وجاء بمعنى تعليق أو ملاحظة تستدعي الانتباه إلى شيء ما، أو كمؤشر يحدد مكان وجودك عموماً لإجراء مقارنة، ويأتي كفعل بمعنى يرجع إلى، يستعين بـ"7.

إذاً، يمكن القول إن المرجعيات الفكرية والحسية هي ما يجب الانتباه إليها والاستعانة بها من مسائل فكرية ودلائل موثوقة من أجل تقديم الجواب لمعرفة الحقائق الفنية والجمالية التي توصل إليها الفنان (المدرس) في إنتاجه الفني.

متن البحث:

ظهرت البنية التشكيلية في أعمال المدرس من خلال انزياحات كبيرة عن الشكل الواقعي وذلك بحسب تغير العلاقات التقليدية الناظمة لأجزاء وعناصر العمل الفني، فتبدلت من الشكل الواقعي وبنيته في الطبيعة إلى شكل آخر ، فتارة تكون منفذة بالاختزال التصويري وتارة بالتحوير والتغيير لكل تفاصيل بنية المشهد الواقعي، كل ذلك بفعل

---

[2]- ديوي،جون، **البحث عن اليقين**، ت: أحمد فؤاد الأهواني ، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة، 1960، ص11

[3] -مير، هنتر، **الفلسفة أنواعها ومشكلاتها**، ت: فؤاد زكريا ، دار نهضة مصر، القاهرة، 1962م، ص80

[4] - علم الجمال الوجودي Existemtial Aesthtics**"حسب علم الجمال الوجودي يجب أن تكون موضوع التصوير الفني (التضويء الوجودي)(أي التجربة الفردية اللاعقلانية) والظواهر التي تفضي الى هذا التضويء .. إن الوجوديين يقيسون موهبة الفنان بالكيفية التي يعبر بها بالرموز عن الوجود وأصالة الفرد ومواقفه الحدية ، والغرض الأساسي للفن هو انبعاث انفعالات الفرد اللاشعورية "** يراجع : موسوعة روزنتال الفلسفية ،ترجمة :سمير كرم ، بإشراف م. روزنتال وب يويدين ،دار الطليعة ،بيروت ،ط 7 ، 1997م.

[5] - الفيروز ابادي، **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1998م، ص721.

[6] - علوش، سعيد، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، دار الكتاب اللبناني وسوشبرس، بيروت والدار البيضاء، ط1، 1985م، ص97.

[7]- word net dictionary, definitiou, meaning of - Reference 3000- 2008, www. Hyper . com dictionary.

الاداء السريع لضربات الفرشاة وبقوة المخيلة التي تقوده إلى أشكال غرائبية لا وجود لها في الواقع والطبيعة. كما في لوحة (بنات كفر جنة 1982م) الشكل رقم (1).

حيث تظهر الفتيات الثلاث في النصف الاسفل من مساحة اللوحة، ومن دون ملامح مطابقة لما هنّ عليه في الواقع، لان الهدف الاساس هو التعبير عن الحالة النفسية لهن، وليس الاستعراض الشكلي، فالفنان تخلى عن الوجه المنتظم لغايات تعبيرية فظهرت ألوان بنات قرية كفر جنة ممزوجة بألوان التراب، والأرض، أرض القرية تحددهن بعض الخطوط السوداء لتفصل الشكل عن الخلفية ، وثمة كائن غريب الشكل أشبه بكائن متوحش مخيف من نتاج مخيلة الفنان تموضع تحت مستوى خط الافق أيضاً وهو مصدر التكثيف الدلالي للقلق والخوف البادي على وجوه بنات كفر جنة.

ذلك أن الفكر التشكيلي يمر بتطور معقد ويسفر عنه أشكال من النشاط العقلي كالإدراك الحسي والتخيل للبحث عن الجديد.

فكانت هذه البنى الجديدة هي التمظهر الحداثوي للتطورات الجمالية في فن التصوير وللمرجع الذي تأثرت به في التأليف بين العناصر والمكونات للتعبير عن التطور الفكري والجمالي عند (المدرس) في فنه.

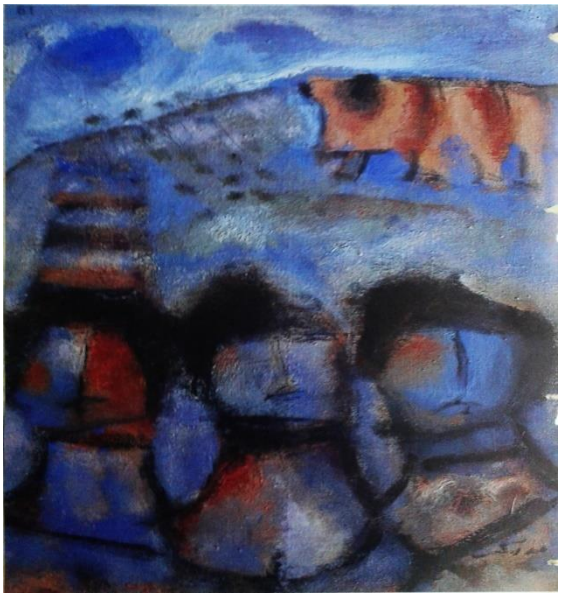

الشكل (1) فاتح المدرس (بنات كفر جنة غرب حلب) زيت على قماش، 70x5 0سم، 1982م

فمن أهم هذه المؤثرات هو فعل الموت (القتل) والذي يعد من أهم المؤثرات الوجودية التي تتحقق في مسألة (الوجود والعدم) أي الحياة والموت، وقد كتب "فاتح" في مقال له: "ولدتُ في أقاصي الريف السوري في الشمال، وكان والدي عبد القادر يسهم في الثورة السورية إبان الاحتلال الفرنسي، وكان ملّاكا كبيراً، قُتل وهو في السادسة والعشرين من عمره، وعشتُ مع أخي كامل في كنف أخوالي الأكراد على الحدود السورية –التركية، وكان الموت قتلاً ظاهرة طبيعية لا يشعر بها أحد، اللهم إلّا الزوجات والأمهات" 8.

إذن: لم يكن هو اللجوء الطارئ إلى الحالة الوجودية، بل هو لجوء تسوغه القيمة الإنسانية العليا لمعنى الفقدان، والموت، والترسب الثقافي الذي هو وليد ووريث أحداث مؤلمة معقدة ذات تأثير مصيري.

كما في لوحاته المعنونة بـ (غرباء في بيتهم 1997) ولوحة (الامومة والاشباح 1982) و(أرض سمير اميس) الشكل

5- فاتح المدرس، التعبير بالألوان –آفاق من الفن التشكيلي، تقديم: د. سليمان العسكري، الناشر مجلة العربي، في كتاب العربي، الكتاب التاسع والثلاثون، ط1،2000م، ص251.

(2) و(3)، وقد رسم المدرس مجموعة من الاطفال في العيد بلون التراب والارض المحيطة وتحت مستوى خط الافق، لا تبدو عليهم ملامح السعادة أو أفراح وبهجة العيد، حتى أن نظام الشكل الفني للطفل استحال إلى صناديق مستطيلة أو مؤلفة من عدة مربعات متراصفة لا حياة فيها.

الشكل (2) فاتح المدرس (أرض سمير اميس) زيت على قماش، 90x110سم، 1964م، مجموعة خاصة، الشيخ حسن آل ثاني، قطر.

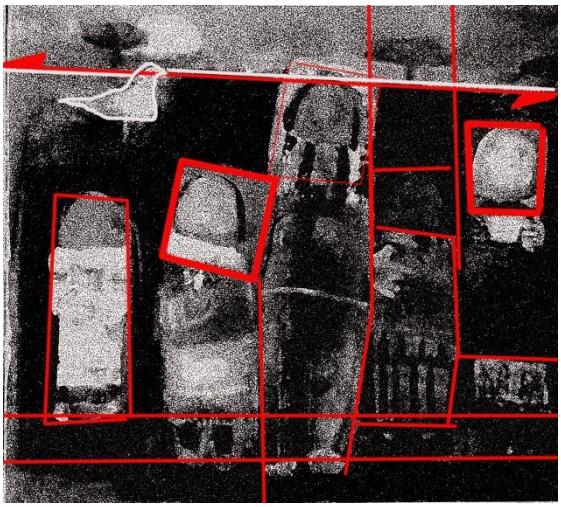

الشكل (3) دراسة لبنية الاشكال وتوزيع العناصر في التكوين وانزياحها عن بنية الشكل الواقعي في لوحة أرض سمير اميس

ومن الجائز النظر إلى هذه المؤثرات على أنها تمثل أسباباً حقيقية بالمعنى الدقيق، وهذه الأسباب لا يمكن أن تكون حقيقية مالم يمكن التعرف إلى نتائجها التي تتجلى في نتاجات فاتح الفنية، مثل لوحة (اللاجئون 1986م) و(غرباء في بيتهم 1997م) و(الامومة والاشباح 1982). ليس في اللوحات وحسبن إنما يجب التعرف إليها أيضاً في مجموعاته القصصية وكتاباته الشعرية والنثرية كما في (عود النعناع)9 و(القمر الشرقي على شاطئ الغرب) و (الزمن الشيء).

ومن قصة قصيرة بعنوان (الكديش) كتبها محمد فاتح المدرس ومؤرخة بـ: دمشق 1992/9/23م يستلّ الباحث هذا المقطع الذي لا تفارقه فكرة النهاية –الرحمة، العدم حيث يقول:

"وضعت يدي على رأس عمر، على قرص رأس عمر، أتحسس مكان العينين يوم الحشر ،ثم رفعت رأسي نحو هذه السماء، خلف الصنوبرتين فرأيت أبا عمر على الصراط المستقيم يمشي وحيداً وعيناه شاخصتان الى السماء ،كأنه يبحث عن حصته من الرحمة في العالم الآخر"10 . حيث تأثير فكرة الموت التي لا تفارقه، الشكل (4)

9- عود النعناع مجموعة قصصية كتبت عام 1957م وطبعت في السبعينيات وترجمت إلى عدة لغات أجنبية ، و"الزمن الشيء" ديوان شعر مشترك مع حسين راجي 1990م.

10 - حمارنة، سمر، كيف يرى فاتح المدرس، طيبة للطباعة والتغليف ،ط1،1999،ص31

الشكل (4) المدرس، فاتح (اللعب والميت) زيت على قماش، 100x70سم، 1979م، عائلة الفنان، مجموعة خاصة.

وبالمقابل فإن أكثر ما يعبر عن الهمّ الإنساني والقلق الوجداني والألم الانفعالي هي الفلسفة الوجودية11...Existentialisme...

وبالتالي فإن التحايث بين الفلسفة الوجودية والأسلوب التعبيري في الفن هو الترافق والتزامن باتخاذ الإنسان منطلقاً وهدفاً لهما (من مولده في الحياة إلى موته في الفناء) فأضحت التعبيرية فلسفة الشكل واللون وجودياً، وجلّ اهتمام التعبيري هو" النفاذ إلى أغوار نفسه، يرى فيها أحداث الحياة بتضاريسها وتجاويفها و مخابيها"12 وهذا ما شغل فلاسفة الوجود أيضاً عندما أعلنوا أن الوجود ليس فكرة مجردة أو وهماً بل الوجود هو الحياة مع الإنسان وللإنسان بأنها "الواقع الإنساني"13 كما عرفها (مارتن هيدجر Martin Hidegger 1889_1986م)14 وقد حدّدها (جان بول سارتر jean poul sartre 1905–1980)15 بجوابه عن السؤال: ماهي الوجودية؟ بقوله:" الوجودية نزعة إنسانية.. وجلّ ما نستطيع أن نقوله في بدء كلامنا أننا نفهم بكلمة الوجودية: نظرية تجعل الحياة الإنسانية حياة ممكنة، وتعتبر أن كل حقيقة لا تكون إلاّ بفعل عاملين: عامل البيئة وعامل الذاتية الإنسانية"16. وفي الشكل رقم(5) لوحة (عرس تدمري 1967م)

الشكل رقم(5) المدرس، فاتح (عرس تدمري) زيت على قماش،1967م، مجموعة خاصة، غياث غازي، دمشق.

11- **الوجودية Existentialisme** ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى في المانيا وبعدها في فرنسا ومصطلح الوجودية أدخله الفيلسوف الكانطي الجديد هاينمان في عام 1929 ..وهناك شكلان من الوجودية، الوجودية الدينية (المؤمنة) (مارسيل وياسبرز وبردايائيف ومارتن بوبر) والوجودية (الالحادية) (هيدغر وسارتر وكامو).عند الوجوديين يتعين على الإنسان أن يكون وعياً بذاته باعتباره (وجوداً)أن يجد ذاته في (موقف هوية)-مثلاً-في مواجهة الموت ..يراجع: موسوعة روزنتال الفلسفية، مرجع سابق ص579.

12- الحنفي عبد المنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2000م، ص 203-204.

13- سارتر، جان بول، الوجودية مذهب إنساني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1983م، ص 45.

14 هيدغر،مارتن:Heidegger martin أحد مؤسسي الوجودية الألمانية والداعية الأساسي لها..أعماله الرئيسية :الوجود والزمان 1927 كانط ومشكلة الميتافيزيقا 1929مدخل إلى الميتافيزيقا 1953 والإنسان في نظر هيدغر لايستطيع ان يدرك أهمية واكتمال كل لحظة في الحياة والتخلص من أوثان الوجود الاجتماعي)الأهداف (المثل) (التجريدات العلمية) إلا بالشعور بأنه يقف دوماً (أمام الموت وجهاً لوجه). يراجع روزنتال ص565 .

15 -sartre jean poul(1905-1980)فيلسوف وكاتب فرنسي أهم مؤلفاته (الوجود والعدم) (1943)،الوجودية نزعة إنسانية) 1947،(نقد العقل الجدلي)1960 ،،وتتركز فلسفته بالنزعة المتمركزة على الإنسان على ؟أنه كائن لذاته ،منه تشتق أشكال الوجود مثل ((الوجود في ذاته))أي العالم الموضوعي والمكان والزمان والكم والكيف ..وقد كان عضو مجلس السلام العالمي روزنتال – ص 238.

16- سارتر، جان بول، الوجودية مذهب إنساني_ مرجع سابق، ص 37.

يظهر فيها نظام الشكل الهندسي للانسان متأثراً بالبيئة التدمرية في بناء التكوين كصيغة معمارية في هياكل شاقولية مسلحة بخطوط سوداء تشبه آوابد مدينة تدمر وأعمدتها الباسقة في تراصف شاقولي.. وهذا النمط الاسلوبي في هيكلة وتحديد مفردات التكوين بدا واضحاً في كثير من أعماله مثل (خالات أمي 1978م) و(قصص الجبال الشمالية 1980م) و(سيدة القرية 1984م) و(اسرة من ريف الفرات 1973م) وقد توزعت الاشكال فيها على شكل أعمدة باسقة الشكل رقم(6).

الشكل رقم(6) المدرس، فاتح،(أسرة من ريف الفرات) زيت على قماش،1973، متحف حلب الوطني، حلب.

وعلى هذا النحو يستطيع الباحث أن يتحقق من مكونات شكلت المصدر الهام الذي يستقي منه الوجودي أفكاره والتعبيري تشكيلاته ألا وهو الواقع الإنساني ومن خلال بيئته التي يعيش فيها عبر تبادل النفاذ الفكري والحسي.

وهذا النفاذ المتبادل بين التعبيري في الفن والوجودي في الفلسفة هو ما يقود إلى الحياة الإنسانية بحقيقتها وعلاقة الفن بها كحقيقة أيضاً، لأن فقدان هذه الحقيقة يحط من قيمة الفن كإبداع جمالي أو من (الجمالية) المتعلقة بالكائن الموجود الواعي.

إن عملية النفاذ أو التداخل بين الأسلوب التعبيري في الفن والفلسفة الوجودية ليس عملية احتواء، لأن النفاذ يؤدي إلى إغناء قيمة بالقيم الأخرى، أي إلى إغناء الفنان التعبيري بأفكار الفلسفة الوجودية، كما أن فلاسفة الوجودية يستمدون أفكارهم من الواقع ويتفاعلون مع التعبير الفني بوصفه مرآة سايكولوجية للواقع فالفنان التعبيري لا يخفي القلق من الموت والألم والتوتر وألام الأعصاب والانفعالات بغطاء الفلسفة المثالية بل بكل تأكيد يسعى لإيضاح هذه الحقائق وكما فعل (المدرس) في لوحاته ونثرياته الادبية دون تحفظ، بل أراد أن تكون أفكاره بمنهج الوجودية، ولوحاته الانعكاس الحقيقي والواضح لأفكاره، كما في لوحته المعنونة بـ (الأرض والوجود 1964م) و ولوحة (العودة 1989م) (أغنية لأطفال الحجارة 1995م) و(أطفال فلسطين 1959م) و(أطفال حرب لبنان 1982م) الشكل(7) .وطالما كان المدرس يوضح طبيعة العلاقة بين الخط في التشكيل وإحساسه في التعبير في اللوحة إذ كتب:" وتمضي الخطوط الجرافيكية على مسارب التكوّن، هل هذا الخط الممتد من جانب الرأس حتى الفقرات القطنية هو من مشرط جراح أم من سلاح القتل، ويختفي القتلة، ربما عادوا إلى قانا أو الخليل، أو جنوب لبنان أو إلى مرتفعات الأراضي.. في قلب كل ملاك قاتل محترف؟!"[17]

[17]- المدرس، فاتح،التعبير بالألوان –آفاق من الفن التشكيلي، مرجع سابق، ص222.

الشكل رقم(7) المدرس، فاتح،(أطفال حرب لبنان) زيت على قماش،1982، مديرية الفنون الجميلة بدمشق.

وهو بذلك يعبر عن الحالة النفسية له مظهراً في تشكيلاته المسافة بين الممكن والواقعي، بين الواقع ونقيضه أوبين القاتل والمقتول، ليترك للمتلقي أن يحدس القيمة التعبيرية الفنية والموضوعية بأقل ما يمكن من اللحظات الهاربة، ولو أراد الفنان أن يشرح فكرته الفلسفية لاحتاج زمناً أطول للشرح كما احتاج المتلقي زمناً آخر ممتداً لقراءة وفهم موضوع اللوحة، وقد عبر (المدرس) عن هذا التفاعل بقوله: "ها أني أضع في أعمالي وجوه القتلة بجوار وجوه ضحايا القتلة، وأترك لحدس الإنسان أن يفتح حواراً شخصياً معي" 18.

يتضح مما سبق أن التفاعل بين الفنان – كما الفيلسوف الوجودي–والبيئة المحيطة باعتبارها تشكل حقيقة الإنسان في الوجود كما يراها الوجودي وذلك من خلال التأثر والتأثير بين الإنسان والواقع، حيث إن الوجودية تعتبر أن كل حقيقة لا تكون إلا بفعل عاملين، هما: عامل البيئة وعامل الذاتية الإنسانية.

وهما عاملان يشكلان بوتقة التفاعل بين الفكر الإنساني ومحيطه الاجتماعي والثقافي والسياسي...كل ذلك يؤجج التفاعل ويوجهه إلى مسار التعبير، وكما أعلنها الفنان (المدرس) وهي تؤلمه:" إن القرون الأخيرة في حياة الشعوب العربية استطاعت بما تفرزه من التيتم، والترمل، وأطنان الألم، والقهر أن تحرم العرب من لغتهم، كيف؟ بتفريغ محتوى الكلمة من معناها، خذ مثلاً: شرف، شجاعة، كرم، علم، حضارة، فن، أدب، موسيقا، عدالة، ديموقراطية، جمال، رجولةن عمل،.... إلى آخر ما هنالك من القيم والشروط الاجتماعية .. أصبح لها معان أخرى مغايرة"19 ولكن أسلوب التشكيل والتشكل في لوحاته تضفي معان وقيم تعبيرية لا يمكن للكلمات وحدها أن تشرحها بذات السهولة واليسر.

وجملة القول، إن التعبيرات (التيتم، الترمل، أطنان الألم، القهر، الحرمان، ..)لابد لها من أن تفصح عن النفاذ الفكري الوجودي عند الفنان (المدرس) وهو ما لا يمكن استبعاده عند قراءة أعماله الفنية وموضوعات لوحاته وكذلك عند تحليل تكويناته الشكلية واللونية. مثل لوحة (أم أطفال الحجارة 1994) و لوحة (الرحيل 1996م) و(الهارب من القدر 1993م) و(الاحتفال بالفقر 1993م) و(اللاجئون 1986م). الشكل رقم (8) .

18- حمارنة، سمر، كيف يرى فاتح المدرس، طيبة للطباعة والتغليف ط1،1999،ص84 وقد كتب فاتح الكثير من هذه الأفكار الخاصة به التي تشير إلى هذا المفهوم في التفكير والتي جميعها تشير في مضمونها إلى فكرة الوجود الإنساني المتوحش فكتب في 1995 (قال الإله ،والآن سأخلق وحشاً لا مثيل له ،فكان الإنسان) يراجع: المصدر نفسه والصفحة نفسها.

19- المدرس، فاتح، التعبير بالألوان –آفاق من الفن التشكيلي، مرجع سابق، ص225.

الشكل رقم (8) المدرس، فاتح (اللاجئون) زيت على قماش، 120x180سم، 1986م، مجموعة معهد العالم العربين، باريس.

ولئن كانت القيمة التعبيرية هي التي يمكن أن تكون سبباً في تحولات الشكل والأسلوب عند الفنان، ونتيجة أيضاً للمقولات الفلسفية الوجودية بما لها علاقة مشتركة بأحاسيس الإنسان ومشاعره تجاه القضايا الاجتماعية.

والأمر لا يبقى على هذا النحو التنظيري مستمراً ما لم يقترن بالتفاعل والتقابل مع فلاسفة الوجود ذاتهم، ولا سيما في فنون الحداثة التي استندت إلى فلسفات محايثة وعلوم منطقية جديدة منذ الانطباعية وحتى التجريدية وما تلاها..

إذن: يبدو أن منطق الاقتران بين الفنان التعبيري وفلاسفة الوجود يوجب أن نفترض تقابلاً، وتماساً مباشراً بين الفنان (المدرس) وهؤلاء الفلاسفة.

إلا أن هذا الافتراض تؤكده تصريحات فاتح المدرس وكتاباته ومذكراته التي دونها في لقاءاته وأحاديثه لطلابه في الدراسات العليا –وأنا كنت واحداً منهم–على أن هذا اللقاء أي بين فاتح وفلاسفة الوجود كان مع أهمهم في عصره آنذاك متمثلاً بالفيلسوف الأشد وجودية ألا وهو (جان بول سارتر) وكان هذا التقابل في روما حيث كان يختبئ لخلاف أيديولوجي مع الرئيس الفرنسي (ديجول) آنذاك بتعبير (المدرس)، وقد دون مجريات ذلك التلاقي بقوله:

"كان ذلك مساء أحد أيام الصيف في روما، التقيت به بجانب الأكاديمية حيث مرسمي في (بابونيو) أي شارع الفرد في قلب روما..

مشينا قليلاً وتمسك بذراعي الأيمن.

- بروفيسور هل تتعشى معي في مرسمي؟
- بكل سرور.. أنت رسام، ومن الشرق.

عشت مع سارتر أسبوعاً وكان هارباً من باريس بسبب خلاف أيديولوجي مع الرئيس ديجول. ...

ومرة كنت أرافقه من شارع الفرد إلى ساحة العمود حيث فندقه.. عندما سألته:

- (مسيو) سارتر كم ضحية جزائرية تم قتلها في هذه الحرب الفرنسية –الجزائرية؟ أعني الثورة الجزائرية.
- ثمانمائة ألف حسب إحصاءات الإذاعات عام 1959.

ستقرأ رأيي في الثورة الجزائرية غداً في جريدة Paese Sera (الوطن المسائي).

وأردف وهو ينهض من مكانه:

- لن أغيب طويلاً.

وسار إلى نهاية الصالون وقلب عدداً من الكراسي في طريقه..."[20]

ويتابع المدرس معه جدلية النفاذ الفلسفي – التعبيري متفكرا بشخصية سارتر البارزة في الوجودية، فيشير إلى أن سارتر قام بترجمة أربع مقطوعات شعرية لفاتح المدرس من اللغة الايطالية إلى اللغة الفرنسية، ودعاه لزيارته في باريس حيث كان منزله بجانب (البوزار) .

[20]- المصدر نفسه، ص228.

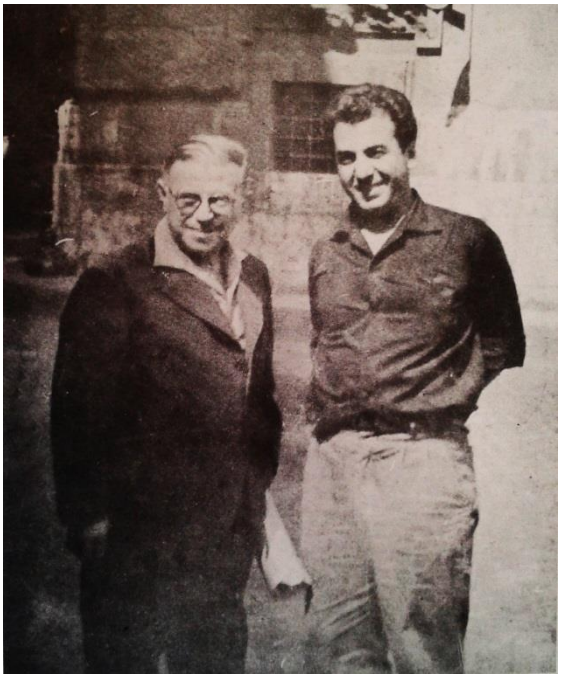

الشكل رقم (9) صورة شخصية للفنان فاتح المدرس مع الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر.

وهنا بدأ اكتشاف توجه جديد لسارتر، فقد غير اتجاهه الإيديولوجي بسبب عاطفة جديدة، الأمر الذي جعل (المدرس) يعود إلى فكرة الملاك القاتل، بقوله: "اتجه إلى دعم الصهيونية بسبب بنت صبية يهودية عاشت معه في سنواته الأخيرة. وكلما فكرت بهذا الحادث ينتابني شعور غامض: هل حقاً في قلب كل ملاك قاتل محترف؟"[21]

وقد عادت التساؤلات (الوجودية–التعبيرية) إلى ذهنية فاتح مستذكراً تاريخ حياته منذ الطفولة ومقتل أبيه: ما الموت؟، ما القتل، ما الأرض، الوطن، المكان؟ ... وهو نفاذ أخر في الفلسفة الوجودية، حيث الإنسان في مواجهة الوجود والعدم كأهم نقاط ارتكازها البحثية.

إلا أن الثابت عند الفنان (المدرس)ليس كياناً عقلياً متعالياً عن المحسوس بل يظهر كعلاقة جوهرية من قلب الوجود المتأثر بحياته الاجتماعية عامة والقومية العربية خاصة متضمناً اشتقاق الحاضر من الماضي. وفيها يجري انتقال النغمة العاطفية المؤثرة من حدث إلى آخر، متفاعلاً بفكره المتعاصر مع الموقف الآني وقد كتب في أوراقه الخاصة التي نشرت فيما بعد، تحت عنوان (أوراق على جدار المرسم)...المؤرخة في العام 1993 "عزيزي بيل كلينتون.. أن تسال عن المسيح الجديد ها هو.. أطفال الحجارة"22.

الشكل رقم(10) المدرس، فاتح (الابرياء والوحش) زيت على قماش، 60x 45سم، 1994م، غاليري أتاسي، دمشق.

فالوجودي مرتبط بالإنسان الذي يعيش حياة الألم والقهر والألم.. ثم يموت ويعود إلى التراب والأرض التي تحتويه ويتحلل فيها فالمتأمل في لوحات (الابرياء والوحش 1994) و(بنات كفر جنة 1982) و(أم أطفال الحجارة 1994م) و(اللعب والميت 1979م).. سيجد أن التعبير عند المدرس يتطبع بطابع الفجيعة، فتمسي ألوانه في لوحاته بسبب الانفعال في عملية المزج والخلط كأنها ممزوجة بلون التراب أو مشتقاته، حيث لم يعد ثمة مكان لألوان الطيف (قوس

[21]- المصدر نفسه، ص 228- 229.

[22] - حمارنة، سمر، كيف يرى فاتح المدرس ،مرجع سابق،ص84

قـزح) الانطباعيـة، فكمـا أن التـوتر فـي الأداء يـؤدي إلـى انفلات الشكل من حدوده الواقعية المنتظمة بانتظام الطبيعة، كـذلك الألـوان بهـذا الأداء الانفعـالي تتحـول إلـى جملـة مـن الألوان التي فقدت بريقها الطيفي وبهجتها لتتحول إلى ألوان الأرض والتـراب الملـوث بالفعـل الإنسـاني وفكـرة (الوجـود والعدم).

نتائج البحث ومناقشتها:

1- تعرض الفنان المصور (محمد فاتح المدرس) لمجموعة مـن المـؤثرات فـي حياتـه فكـان أهمهـا : المـؤثرات الفكريـة وأخرى حسية انعكس من خلالها العالم الخارجي في مفاهيم وأحكام جمالية في لوحاته متمثلة بعلم الجمال الوجودي.

2- أظهرت أفكـار (المـدرس) فـي نتاجاتـه الفنيـة كعمليـات عقليـة تمثلـت بلوحاتـه فـي فـن التصـوير وكتاباتـه وقصصـه وأشعاره النثرية ارتباطاً لا ينفصم عن حالته النفسية وبالتالي فـان انتاجاتـه لـيس لهـا وجـود منعـزل عـن شـعوره وإحساسـه العميق بقضايا إنسانية عامة مثل الوجود العربي والقومي في القضـية الفلسـطينية والثـوار الجزائـريين علـى الصـعيد العربـي وكـــذلك بمســـالة حياتـــه الاجتماعيـــة منـــذ طفولتـــه (اليتيمة)المحرومة من الأب (قتلاً).

3 – إن الدلالــة الحقيقيــة لموضــوعاته الإنســانية متطبعــة بطـابع الفجيعـة التـي تمثلـت بالأسـلوب التعبيـري فـي الفـن التشكيلي معتمداً علـى الاختـزال والتحـوير الانفعـالي للشـكل الفنـي .بتـأثير مفـاهيم وجوديـة مثـل (الحرمـان ،القلـق ،التـوتر الألم، الإحباط، الموت، العدم ...)إنما هو تداخل مع الفكر الوجـودي وتبـادل فـي النفـاذ الفكـري الحسـي بـين الفلسـفة الوجودية وفن التصوير.

4- إن ما يؤكد هذا النفاذ هو الاستعداد المسبق عند الفنان (المـدرس) لتقبلـه هـذه المفـاهيم بالدرجـة الأولـى، وكـذلك التقابل والحـوار مـع أهم فلاسفة الوجـود فـي عصـره ألا وهـو (جان بول سارتر)الذي كان له الأثر الفكري الوجودي الهام في نتاجات (المدرس) الفنية وفي تأسيس أسلوبه التشكيلي الخاص .

المراجع:

1- الحنفي عبد المنعم، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2000م.

2- ديوي، جون، البحث عن اليقين، ت: أحمد فؤاد الأهواني، دار إحياء الكتب العلمية، القاهرة، 1960.

3- ديوي، جون، المنطق نظرية البحث، ت: زكي نجيب محمود، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط2، 1961م.

4- سارتر، جان بول، الوجودية مذهب إنساني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروتن لبنان، 1983م.

5- سمر حمارنة ، كيف يرى فاتح المدرس، طيبة للطباعة والتغليف، دمشق، ط1، 1999م.

6- علوش، سعيد، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني وسوشبرس، بيروت والدار البيضاء، ط1، 1985م.

7- الفيروز ابادي' القاموس المحيط، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1998م.

8- المدرس، فاتح، التعبير بالألوان – آفاق من الفن التشكيلي، تقديم: د. سليمان العسكري، الناشر مجلة العربي، في كتاب العربي، الكتاب التاسع والثلاثون، ط1، 2000م.

9- م. روزنتال وب. يويدين، موسوعة روزنتال الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط7، 1997م.

10- مير، هنتر، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ت: فؤاد زكريا، دار نهضة مصر، القاهرة، 1962م.

11- word net dictionary, definitiou, meaning of Reference 3000- 2008, www. Hype. com dictionary.

التمويل: هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).